قصة

وقالت عمّتي

"كبار السن تاج على رأس العائلة ومعين
الحكمة والملاذ الآمن"

قامت في منتصف الليل كعادتها لتصلي وقبل أن تذهب لتتوضأ مرّت على غرفة "ريحان" ابنة أخيها وابنة قلبها فلقد تربّت على يديها وهي أول من حملها وأذّن في أُذنها وهي طفلة، ولقد صدق حدسها فلقد وجدتها تحتضن وسادتها وتبكي بصوت خفيض كي لا يشعر بها أحد فاقتربت منها ببطء وقالت بهدوء

_منذ أن دلفتي من هذا الباب يا صغيرتي وأنا اعلم إنك لست بخير، لقد صدّقوا مُزاحك وضحكاتك وصدّقوا إنها زيارة عادية إلا أنا لقد نظرت إلى قلبك لا ملامحك ورأيت ما لم يروه، هناك جُرح غائر لم تفلح ضحكاتك في إخفائه عنّي ما بكِ يا ريحان؟

اعتدلت ريحان في جلستها وقالت بحزن

_أنا متعبة للغاية يا عمّتي قلبي يؤلمني بشدة وأريد أن أبوح لكِ بخبيئة قلبي، فهل تسمحين؟

إبتسمت "صابرة" بحب وقالت

_ومن يفعل إن لم افعل أنا!

جلست صابرة بجوار ابنة أخيها وربتت بحنو على رأسها وقالت

_ماذا حدث يا ابنتي ولماذا لم يأتِ زوجك معك هذه المرة؟!

تنهدّت ريحان بألم وقالت

_أنا من طلبت منه ذلك وددت أن أُلملم شتات نفسي وأحسم أمري وافكر بعيداً عن كل الضغوطات من حولي لذلك لم أُخبر أبي وأمي بأي شيء

_حسناً أخبريني ما الأمر وسأُصدقك النصح فأنتِ ابنتي وقرّة عيني

مسحت ريحان وجهها بيديها وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت

_الأمر بدء في شهور حملي الأولى عندما أخبرني عن زميلته الجديدة في العمل والتي ستعمل معه وتحت إشرافه ومن هنا بدأت اللعنة، كانت تهاتفه يومياً بعد أن يعود من عمله فيدخل لغرفة أخرى بعيداً عنّي ليحدثها وعندما اسأله عمّا تُريده يقول تسألني عن أشياء تخص العمل، جن جنوني ولم أعد أُصدقه ونبت الشك في قلبي وروته أفعاله بلا رحمة

إن كان ما بينهم العمل وفقط لما لا ينهون أحاديثهم في العمل؟! لما في بيتي وفي وقتي الخاص الذي أحب أن انفرد به فيه وكأنها تتعمد إشغاله بها وبحديثها حتى وهو بجواري!

سألتها صابرة

_هل تحدثتِ معه بصراحة عمّا يدور بخُلدك؟

بغضب مكتوم أجابت

_فعلت، وكان دوماً يُخبرني أنه يعاملها كأخته وأن لا شيء يستدعي شكوكي تلك، تألمت كثيراً يا عمّتي كان صدري يضيق وأنا أراه يراسلها على الإنترنت يحتضن هاتفه بكفيه ويبتسم من آن لآخر كانت معدتي تتقلص وتؤلمني لرؤية اسمها على هاتفه وكأنها لا تصبر على فراقه، شهوراً يا عمّتي وأنا اتلظّى بنار الغيرة وهو لا يدري حتى تعاون شيطاني مع نفسي الأمّارة وفتّشت هاتفه لأُمسك عليهم ما يُدينه ويثبت تهمة الخيانة عليه

بغضب وقالت صابرة

اخطأتِ يا ابنتي

وبانفعال وشلال دموع أجابتها ريحان

_لا يا عمّتي لم أُخطئ لقد رأيت رسائله بعيني يُدللها ويحادثها بأريحية ولم أجد رسالة واحدة بينهم تخص العمل بل يتحدث عن نفسه وطموحاته وهي يتحدث عن نفسه وتقص عليه ما يتحدث في يومها حتى أنها تأخذ رأيه في ملابسها ماذا ترتدي ويقترح عليها أن تلبس هذا وذاك الذي ارتدته يوم كذا والآخر ذو اللون الأزرق فهو يليق بها تخيلي يعرف ملابسها والوانها ولو سألته عن ملابسي لن يتذكر عنهم شيء، هو مهتم بها وبما يخصّها

أنهت ريحان كلامها وانهارت في حضن عمتها تنتحب وتنعي حالها

ثم قالت وهي لازالت بين ذراعي عمّتها

أحببته كما لم أحب أحداً من قبل أحببته أكثر من نفسي صبرت معه على كل شيء حتى ضيق ذات اليد لم اشتكيه أيكون جزائي أن يهتم بأخرى في أكثر الأوقات التي احتاجه فيها بجانبي؟!

_هل علم بما فعلتِ؟

قامت ريحان من حضنها وقالت

_أجل، لقد واجهته فغضب عليّ واتهمني بخيانة ثقته تخيلي يخونني ويتهمني بالخيانة!! يقول أني خنت ثقته وهتكت ستره وأنه كان يعاملني بما يُرضي الله وأن علاقته بها لم تؤثّر على علاقته بي وأن ذنوبه ليست من شأني، لقد تبجّح يا عمّتي تبجّح ونهرني ولم يعتذر لم يستجدني كي أسامحه بل توعدني بعقاب لتجسسي عليه

بكى صغيرها الذي لم يتعد عمره بضعة أشهر وكأنه يشاركها الألم فقامت لتحتضنه وتمسح على ظهره حتى يهدأ ثم قالت لعمّتها

_ أنا لا أُريد أن أُكمل معه يا عمتي لقد كُسرت صورته بعيني وسقط مقامه من قلبي كل ما أخشى عليه الآن هو صغيري أعلم أنه أن يتركه لي بسهولة وأنا لا استطيع مفارقته ولو ليوم واحد

كانت صابرة تسمعها بصبر حتى تُفرغ شحنات قلبها وتهدأ حتى تسمعها بعقل صافٍ غير مُشوش

وقالت صابرة بحكمة وهدوء

_هذا ابتلاء كبير يا ريحان قلبي وهذه هي الدنيا لا تبقى على وجه واحد أبداً، لقد أخطأتِ يا ابنتي وأذنبتي ذنباً كثيراً

وقالت ريحان بصدمة

_أنا يا عمّتي؟!!!

_ نعم يا ابنتي لقد تتبعت عورته أما تعلمين أن حبيبك رسول الله قال "يا معشر من آمن بلسانه ولم فيدخل الإسلام قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبع عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته، يفضحه ولو في جوف بيته"

قالت مدافعة عن نفسه

_ولكنّي لم افعل لقد فضحه الله وكشف ستره ونفذ رصيده من الستر

_لا هذا ليس صحيح، أن يفضحه الله هو أن يُريكِ خبيئته دون سعي منكِ لذلك أن تكون مصادفة لا ترصُد منك وهذا ذنب والذنوب تورث الهم والغم وهذا حالك

شعرت بالخجل وقالت

_نعم أنتِ محقة ولكن ماذا عن ذنوبه هو، ألم يُذنب؟!

_بلى، فعل ولكن من قال لكِ أنكِ واصية عليه وعلى أفعاله من أمرك بمحاكمته؟

رفعت حاجبها تعجباً وقالت

_سامحيني يا عمّتي ولكن أنا لا اتفق معكِ في هذا يُذنب هو ويخونني مع أخرى ولو بقلبه فليست كل الخيانة علاقة الجسد بالجسد فاللسان يخون إذا لاطف ما لا يحل له، والقلب يخون إذا حنّ لأخرى لا تحل له والعقل يخون بالتفكير في المحرمات وهو خائن ومُدان

ابتسمت صابرة وقالت بسخرية

_هل استغفرت لذنبك يا ريحان؟

ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت بخجل

_لا، لم افعل

تنهدّت صابرة بحزن واقتربت أكثر من ريحان وقالت بحكمتها المعهودة

_اسمعيني بعقلكِ يا صغيرتي ونحِ قلبك جانباً

كيف يعاملك زوجك؟ هل معاملته طيبة أم سيئة؟ حنون أم غليظ والقلب والمشاعر؟ كريم أم بخيل في المال والمقال؟

_ الحق يُقال هو يعاملني بلطف ومودّة صحيح أننا نختلف من وقالت لآخر ولكن هذا طبيعي يحدث بينهم الأزواج والغالب على طبعه اللين، لكن في الفترة الأخيرة بعدما واجهته بما يفعله في الخفاء أصبح قاسياً بعض الشيء لا يهتم بحزني كالسابق لا يلتفت لدموعي وصار يتجاهل مشاعري وهذا زاد حنقي وغضبي عليه

_هذا طبيعي فهو مكلوم مثلك لقد تعرى بالكامل أمامك وظهرت سوءته بعدما كان يتجمّل أمامك بالخلق الحسن ويُظهر لك طيب معدنه وجميل عشرته ولكنكِ رميتِ بكل ذلك عُرض الحائط واخترتِ أن تري الجانب المُظلم منه فماذا عساه أن يفعل؟!

ظهرت الحيرة جلية على وجه ريحان وقالت

_يجب أن يسترضيني يعتذر عما تسببه لي من ألم، اتعلمين يا عمّتي ما هو الفارق بيني وبينه أني معترفة أمام نفسي وأمامه أني أذيته وهو لم يعترف بأنه آذاني، يرى خطأي ولا يرى خطأه يطلب منّي أن أُغيّر من نفسي ولا يفعل ذلك مع نفسه

_تخيّلي يا ابنتي أني جرّدتك من ملابسك أمامي وتركتك عارية بلا ستر ثم قلت لكِ أن ملابسك جرحت يدي وأنا أنزعها وأنها تؤلمني هل ستعتذرين لي؟!

ثم من أدراكي أنه لا يفعل ذلك مع نفسه لم تدخلي قلبه لم تسمعي أحاديث نفسه وجلده لذاته على ذنوبه لن يأتي ليقول لك انظري أنا أكره نفسي لذنب فعلته يكفيه كسر صورته بعينك لن يُظهر لك ضعفه، إن اردتي أن تهنأي بحياتك يا ريحان يجب أن تعلمي أن زوجك ليس ابنك لن تُربيّه ولن توجهيه كصغير عليك تقويم سلوكه هو رجل مسئول عن نفسه وعن رعيّته دورك كزوجة هو النصح لله بطريقة حسنة وليس ثأراً لنفسك ولا غضباً لكرامتك، النصح لله فقط وخشية عليه من الأمر

زفرت ريحان ثم قالت

_وإن نصحته ولم يتقبل ماذا افعل؟!

_ليس عليك إقناعه يكفيك أنه يسمعها وإن لم يتقبلها أمامك يتقبلها بينه وبينه نفسه مادمت أخلصت نيّتك ونصحك لله سيهديه يا ابنتي وسيعود لطِيب اصله، كونك أحببته وترينه أفضل رجل في الدنيا لا يجعل هذا منه ملاكاً لا يُخطئ بل هو إنسان يُصيب ويُخطئ، يتعثر وينهض وهذا حالنا جميعاً

هزت رأسها باقتناع وقالت

_صدقتِ يا عمّتي، كانت غضبتي لنفسي ونُصحي لم يكن خالصاً لله ولربما شعر في نُصحي بانتقاص منه دون قصد مني ولكن كيف اعالج قلبي المكسور يا عمّتي كيف اتخلّص من الحزن الذي سكنني كيف أعود لمكانتي في قلبه بعد أن فقدتها وكيف أعيده لقلبي؟

اتسعت ابتسامة صابرة وقالت

_أمّا وقد سألتِ هذا السؤال فأنتِ تطلبين الحل بصدق، أين أنتِ من أسم الله "الجبّار" توجهي لله بالدعاء ادعيه باسمائه وصفاته يا ابنتي يجبر كسرك ويرد عليكِ قلبك ويعيد لك زوجكِ، القلوب بين اصبعيه يا ابنتي ادعيه أن يُثبّت قلب زوجك على حبك، حصنيه بالدعوات يا ابنتي واطلبي له الهداية من الهادي، هذا أفضل من مليون جدال عقيم مرهق لن يصل بكم لشيء، الدعاء سحر يا ريحانتي

سكتت لتلقط أنفاسها المتعبة ثم أردفت

_أنا اطلب منك أن تراقبي نفسك لا زوجك، اصلحي نفسك لله يُصلح لك زوجك، استحضري مراقبة الله لك في كل أفعاله لا تتجسسي عليه مجدداً يا ابنتي حتى لا يتتبع الله عورتك، واطلبي من زوجك

أن يغيّر كل كلمات الستر الخاصة به، وإذا حدّثتك نفسك بسوء مجدداً استعيني عليها بذكر الله والاستغفار وإذا وسوس لك الشيطان بأنه قد يخونك مرة أخرى توضأي وصلي واشكي حزنك لله يُذهب غيظ قلبك ويصرف عنك سوء المقادير، و اعلمي أنه لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا، فاهدئي بالاً واتركي لله تصريف أمورك، ولا يُحزنك إلا ذنب يحيل بينك وبين رضى الله وجنته فما دون ذلك دون

دمعت عيون ريحان تأثراً و نظرت لعمّتها بحب شديد وقالت

_لا حرمني الله منك يا عمّتي أرحتِ صدري ولملمتِ شُتاتي

قبّلت صابرة جبين ابنة أخيها وقالت

_غداً تذهبين لبيتكِ لتبدأي عهداً جديداً في رضى الله لا تنظري للماضي وليكن ظنك بالله حسناً

****

"آه يا عمّتي أنتِ بلسم لقلبي بحق وسندي وصديقتي وأحب الناس لقلبي، لقد سجّلت كل ما قُلته بعقلي ودوّنته بدفتري الخاص حتى يكون تذكيراً لي إذا ما نسيت أو ضعُفت"

أرسلت ريحان رسالة لزوجها وهو في عمله قبل أن تعود للمنزل وتُنفّذ ما عزمت على أن تفعله

"حبيبي، اشتقت إليك يا نبض قلبي، كنت أحسب أن في البُعد سأجد راحتي وضالّتي ولكن كيف لقلب أن يهنأ وهو بعيداً عن نبضه، سأعود يا نبض قلبي لنجدد العهد ونمحو الماضي ونصنع حباً يليق بقلبينا ومستقبل يليق بصغيرنا"

أرسلت له هذه آل كلمات وعادت لشقتها ثم قامت بترتيبها وصنعت طعاماً تعلم جيداً أنه يعشقه من يديها ثم أخذت حماماً دافئاً وارتدت فستاناً رقيقاً بلون زهري_لونهما المفضل_ وأخذت تنظر في المرآة وهي راضية عن نفسها لأول مرة منذ مدة طويلة، فلقد كانت ساخطة على شكل جسدها بسبب حالتها النفسية والحمل والوضع، أما الآن فهي راضية وشاكرة لله على عطاياه وفضله، أرضعت صغيرها ووضعته في مهده، وأتى زوجها في موعده.

****

دلف زوجها وهو لا يكاد يصدق عينيه فبعدما استقبل رسالتها الحنون تعجب من التغيُر المفاجيء في طريقتها وكلامها فمنذ يومين

فقط كانت لتُقسم أنه أبغض خلق الله لقلبها وأن لا أحد أذاها مثلما فعل هو، خرجت لتجده يقف في أمام السفرة ينظر للطعام الفاخر الذي أعدّته وعندما رآها اتسعت ابتسامته وضمها بسعادة بالغة، همّت أن تقول شيئاً فوضع سبابته على شفتيها وقال بحنو

_أنا أحبك يا ريحانتي كما لم أحب أحداً من قبل، منذ أن تركتِ المنزل أنتِ وصغير واظلمت الدنيا بعيني، تيّقنت أنكم شمسي وقمري ولا حياة لي بدونكم ولكن لم أرغب في الضغط عليكِ كي تعودي وأن اترك لكِ مساحة للتفكير وكنت على يقين أنك ستعودين ولكن لم اتخيل أنك ستعودين بهذه السرعة

ابتسمت وقالت

_لنتناول طعامنا أولاً ثم لنا حديث طويل.

****

بعدما تناولا طعامهما قامت ريحان لتعد كوبين من الشاي لها ولزوجها استعداداً لحديثها، تماتمت في سرها قائلة

"رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي"

ثم توجهت إليه جلست أمامه وقالت بهدوء

_أريد أن أتحدث باسترسال وارجو ألا تقاطعني، أريد أن أخرج لك ما بجُعبتي ثم سأترك لك الفرصة لتقل ما شئت

_تفضلي

أخذت نفساً عميقاً ثم قالت

_أنا أسفة، أعلم أني قد أذيتك كثيراً بتتبع عوراتك وبمحاسبتك وأنا لست أهلاً لذلك فلي عوراتي ولي ذنوبي مثلك ولا يحق لبشر أن يحاسب بشراً مثله، وأيضاً قد أذيت نفسي سئلت عن أمور فلما بدت لي سائتني وليتني لم افعل، ولكن الماضي لن يُغيّر ولن يفيد الاستفادة الوحيدة التي خرجت بها من محنتي ألا أراقب سوى نفسي ولا احزن إلا لذنبي وأن اكتفي بالجانب المُضيء منك مادمت تتقِ الله في ولا تأمرني بمعصيته، سامحني على ما بدر منّي وأعدك ألا أكررها مجدداً

كان واجماً وهو يسمعها لم يتخيل أبداً أنها من ستطلب منه أن يسامحها، وهو يرى نفسه أنه أذنب بحقها وحق نفسه وأنه أعان

شيطانها عليها وكان بتصرفاته الغير محسوبة منبع ريبتها وسبب فتنتها ولكن سرعان ما نحى الوجوم جانباً وقال بنبرة صادقة

_أنا أحبك كثيراً يا ريحان

ثم نكس رأسه وأردف

_اعلم أني أذيتك أيضاً وكنت سبباً في فتنتك ووقوعك في ذنبك، أسف وأعدك أنك ستظلين غاليتي وحبيبتي ومهجة قلبي لأخر يوم في عمري وأن ابذل لكِ أيامي لأرى البسمة لا تفارق وجهك، صدقيني حزنك وانطفائك يُشعرني بأني يتيم وكأنك كل أهلي وكل البشر

دمعت عيناها تأثُراً وقالت

_كنت أريد أن أسمع منك هذا، كنت أريد ذلك بشدة، كنت أتمنى أن أرى بعينيك نظرة أنك مكتفي بي وأني املأ قلبك وعقلك وعينيك وكل حواسك

_والله إنك كذلك، لنبدأ معاً عهداً جديداً بقلوب طاهرة صافية ولا مكان للشيطان بيننا

ارتمت في حضنه وضمته بشدة وقالت

"لا حرمني الله حُبك يا نبض قلبي"

وتمت في سرها قائلة

"اسعدكِ الله وارضاكِ يا عمتي صابرة"

تمت